(١)

برُّ الوالدين وإكرامُ ذي الشيبة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين **وبعد** :

فلقد جاءت الشريعة الإسلامية برسالة إنسانية داعية إلى كل خلق كريم ، وسلوك مستقيم ؛ لأن الأخلاق هي الأساس الذي تقوم عليه الأمم ، وتبنى عليه الحضارات، وهي العماد الذي يضمن بقاءها واستمرارها ، ويرجى معه تقدمها وعزها ، فسلامة الأمة وقوة بنيانها لا يكون إلا بتمسكها بالأخلاق الفاضلة ، فالأمم التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها، ولله در القائل:

إِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ *** فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

وإن من مظاهر عظمة الإسلام ورحمته وسماحته وعدله وإنصافه اهتمامه بتكريم الإنسان ، ووصيته برعايته في جميع مراحل حياته وفق منهج رباني محكم يراعي الحقوق والواجبات ، ويضمن للناس جميعًا حياةً آمنةً كريمةً مستقرة ، ولا شك أن من أجلى وأوضح مظاهر هذه العظمة أمر الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالإحسان مع الناس جميعًا ، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}، ويتأكد هذا الأمر بل تعظم الوصية به في حق الوالدين ، فلقد أمر الله (عز وجل) الناس عامة بالإحسان إلى الوالدين ، والبر بهما ، والتلطف معهما ، وخفض الجناح لهما في أكثر من آية ، فقال سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، وقال

تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}، والمتدبر في هذه الآية الكريمة يرى لفتة إنسانية واجتماعية تميز بها الإسلام في حديثه عن بر الوالدين ، في قوله تعالى { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا}، ففيها ما يُشعر بضرورة أن يكون الوالدان في كنف أبنائهم ، وتحت عنايتهم عند الكبر ، لا سيما وأن تلك المرحلة إنما هي مرحلة الضعف التي يحتاج الإنسان فيها إلى عظيم عناية ورعاية .

إن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يرى أن الدعوة إلى بر الوالدين جاءت مقرونة بالدعوة إلى توحيد الله في ست آيات من كتاب الله ؛ وذلك لعظم منزلتهما، وجليل قدرهما ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا وَاحِدَةٌ بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا ، الأولى: قَوْله تَعَالَى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِعْ رَسُولَهُ (صلى الله عليه وسلم) لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ. وَالثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يُزَكِّ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ. والثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى: {أَنْ اُشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}، فَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ}.

لقد أعلى الإسلام من قيمة بر الوالدين والإحسان إليهما ، ولا أدل على ذلك من إشارات القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أن بر الوالدين هو خلق الأنبياء والمرسلين ، وهدْي الأولياء والصالحين ، فهذا نبي الله نوح (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} ، وأبو الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ*رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، وهذا الابن البارُّ إسماعيل (عليه السلام) يجُيب أباه بقوله: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}، وهذا نبي الله عيسى (عليه السلام) يتحدث عن بره بأمه فيما حكاه عنه القرآن الكريم: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} .

ومما لا شك فيه أن بر الوالدين والإحسان إليهما صورة من أرقى وأنقى صور البرّ والوفاء ؛ ولله درّ القائل:

إن الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذي الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا وترى اللئيم مجانب الإنصاف

ويقول الآخر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومَن أحق بالوفاء من الوالدين؟ مَن أحق بالوفاء ممن حَملتك فِي بَطنهَا تِسْعَة أشهر كَأَنَّهَا تسع حجج ، وكابدت عِنْد وضعك مَا يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لَبَنًا، وغسلت بِيَمِينِهَا عَنْك الْأَذَى ، وآثرتك على نَفسهَا بالغذاء ، وإِن أَصَابَك مرض أَو شكاية أظهرت من الأسف فَوق النِّهَايَة ، وَلَو خيرت بَين حياتك وموتها ، لاختارت حياتك بِأَعْلَى صَوتهَا ، لذلك وصانا ربنا سبحانه وتعالى بها في قوله (عز وجل) : {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}.

ومَن أحق بالوفاء مِن أبٍ عطوفٍ مُتعَبٍ في همِّه لا يشتكي؟ كم تكبد الصعاب وتحمل المشاق من أجلك ؟ يبذل إليك النصيحة بصدق وكل آماله أن ترتقي ، لله در الآباء كم تحملوا من ألم وتعب من أجل أبنائهم ، من أحق بالوفاء والبر من الوالدين؟ لذا فقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) بر الوالدين في مرتبة عالية ، ومكانة سامية ،

حيث عدَّه (صلى الله عليه وسلم) من أحب الأعمال إلى الله (عز وجل) بعد الصلاة المكتوبة ، بل وقدم (صلى الله عليه وسلم) ذكره على الجهاد في سبيل الله ، فعندما سُئل (صلى الله عليه وسلم): أيّ العَمَلِ أحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى؟ قَالَ: (الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا)، قيل: ثُمَّ أيّ؟ قَالَ: (بِرُّ الوَالِدَيْنِ)، قيل: ثُمَّ أيّ؟ قَالَ: (الجِهَادُ في سبيلِ الله). وعندما جاءه رجل يستأذنه (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، سأله النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قائلًا : (أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ) .

ومما لا شك فيه أن حق الأم في البر جدّ عظيم ؛ فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟، قَالَ : (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ). وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال: (زَوْجُهَا). قلت: فأي الناس أعظم حقا على الرجل؟ قال: (أُمُّهُ). وجَاءَ رجلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ ، فَقَالَ : (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا) .

ولا ينتقص من بر الوالدين ولا ينال من حقهما أن يكونا على غير الملة ؛ فقد قال الله تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}، أَيْ بِالْمَعْرُوفِ، وَهُوَ الْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْعِشْرَةُ الْجَمِيلَةُ ، فقد يرى بعض الشباب أنه أكثر تدينًا من والده ، فيغلظ له القول ، أو يسيء معاملته، فنلفت أنظارهم إلى أمر الله (عز وجل) بالإحسان إلى الوالدين ولو كانا كافرين ، أو حتى لو أرادا أن يحملاك على معصية الله ، أو حتى على الكفر ، فلا تطعهما في ذلك ، غير أن ذلك لا

يخوّل لك سوء معاملة أيّ منهما ، إنما يجب أن تكون في جميع أحوالك ، كما أمرك الحق سبحانه : {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} ، مع علمك بأن ذلك ليس تفضلًا منك إنما هو حق وواجب عليك تأثم إن لم تقم به أو قصرت فيه ، وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقُلْتُ يا رسول الله: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ؟ أَفَأَصِلُهَا ؟ قَالَ: (نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ) .

فلنكن بارين بآبائنا وأمهاتنا ، أوفياء لهم ، ولنوقن بأن البرَّ دين يسدد في الحياة قبل الممات ، وعلينا أن ندرك أن عقوق الوالدين مما يعجل له العقوبة في الدنيا مع ما فيه من غضب الله (عز وجل) في الآخرة . مصداقًا لقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اثْنَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّهُ: الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) .

وفي الحديث : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟) ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ).

ولنعلم جميعًا أن رضا الله (عز وجل) من رضا الوالدين ، وسخطه من سخطهما ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رِضَا اللهِ مِنْ رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ مِنْ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إن الإسلام دين الأخلاق الفاضلة ، والمعاملة الحسنة ، دين الوفاء وحفظ العهد ، ورد الجميل ، دين لا يعرف الجحود ولا التطاول على الآخرين ؛ لأنه دين الإنسانية بكل معانيها ، وتتجلى مظاهر هذه الإنسانية في رعاية ذي الشيبة عمومًا، وكفالة حقوقهم، وقضاء حوائجهم ، والسعي على مصالحهم ؛ فلقد جاءت نصوص الشريعة الإسلامية تدعو إلى الاهتمام بكبار السن ، والعطف عليهم ؛ تقديرًا وإجلالًا لهم ، فعن أَبي موسى (رضي الله عنه)، قَالَ : قَالَ رَسُول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ تَعَالَى : إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ ، وَحَامِلِ القُرآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ ، وَالجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِط) ، أي أن : تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام ، بتوقيره في المجالس ، والرفق به ، والشفقة عليه ، ومناداته بأحب الأسماء إليه ، وعدم التقدم عليه في الكلام ، أو المشي أمامه ونحو ذلك ، كل هذا مِن كمالِ تعظيم الله (عز وجل) وإجلاله ، لما لهذا الكبير من مكانة وحرمة عند الله تعالى .

ولقد بلغ اهتمام الشرع الحنيف بالكبير والمسن أن أوصى بمزيد من التخفيف عليهم والتيسير لهم في أداء الطاعات والعبادات رأفة بهم ، فقد أمر الإسلام بتخفيف الصلاة التي هي أعظم شرائع الدين من أجل أصحاب الأعذار وكبار السن ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ).

على أنه ينبغي أن نعلم أن الإسلام لم يفرق بين ذي الشيبة المسلم وغير المسلم في المعاملة ؛ فهذا خامس الخلفاء الراشدين سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يكتب إلى عامله في البصرة كتابًا يقول فيه: "وانظر مَن قِبلَك من أهل الذمة قد كبرت

سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجْر عليه من بيت مال المسلمين ما يُصلحه ".

ولما رأى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجلًا مُسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فقال : والله ما أنصفنا هذا إن أكلنا شبيبته وضيعناه في شيبته ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

وهذا ما أقره سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) في صلحه لأهل الحيرة: "وجعلتُ لهم أيُّما شيخ ضعُف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهلُ دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته ، وعِيل من بيت مال المسلمين".

فالإسلام يدعو إلى التكافل والتوازن بين أفراد المجتمع حتى تسود روح الوئام والسلام ، ويتحقق السلام النفسي ، والأمن المجتمعي بين أبناء المجتمع جميعًا .

فما أحوجنا إلى عودة إلى قيمنا الدينية والمجتمعية والإنسانية من بر الوالدين، وحسن معاملتهما ، وإكرام الكبير ، وذي الشيبة ، والإحسان إلى الخلق جميعًا.

فاللهم اهدنا لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها، فإنه لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.